الصَّبْر علىٰ محنة الجوع والعطش

وهذه المحنة متفرِّعة عن محنة الفقر ، وهي من أقسىٰ مظاهرها وأشدِّها إيلاماً ، لأنَّ الطعام والشراب قوام حياة الإنسان ، فإذا ما انقطعا عنه ذوىٰ جسمه ، وضعفت قوَّته ، وأشرفت نفسهُ على التلف ، لذلك كان من دعائه ﷺ : « اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بك من الجوع فإنَّه بئس الضَّجيع »[1] .

ولقد خاض الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون محنة الجوع والعطش ، وكانوا فيها صابرين راضين عن الله بما قسم لهم من الأرزاق ، وقدَّر لهم من الأقوات . وإنَّ سيرة رسولنا المصطفى محمد ﷺ تُحدِّثنا عن تحمُّله ألم الجوع فتذكر أنَّه خرج ذات يومٍ علىٰ بعض أصحابه الذين أتوه وقد وضع كلٌّ واحد منهم حجراً علىٰ بطنه من شدَّة الجوع ليُسكت

---

(١) كنز العمال ٢/ ٣٦٨٩ .

ألمه ، فكشف لهم رسول الله ﷺ عن بطنه ، فوجدوه قد وضع حجرين من شدَّة الجوع الذي أصابه .

ودخل عليه أبو هريرة رضي الله عنه مرّةً فرآه يصلي قاعداً فلما أنهى صلاته سأله : ما أقعدك في صلاتك يا رسول الله أهو المرض ؟ فأجابه قائلاً : « لا ، إنَّما أقعدني الجوع » .

ولم ينس التاريخ صحيفة المقاطعة التي تعاهد عليها زعماء المشركين ضدَّ رسول الله ﷺ في مكَّة أن يقاطعوه وأهله من بني هاشم ، فمكث مع أهله وسائر عشيرته الأقربين من بني هاشم في شِعْب أبي طالب ثلاثَ سنين اشتدَّ عليهم خلالها الجوع والعطش حتى أكلوا ورق الشجر فتشقَّقت من أكله أشداقُهم . وكم جاء في سيرته ﷺ أنَّه كان يبيت مع زوجته طاوياً لا يجد في بيته ما يسدُّ رمقه ، وكان يدخل على أهله فيسألهم أعندكم طعام ، فإذا اعتذروا قال : « إذاً أنا اليوم صائم » ، ورُبَّما كان يظلُّ اليوم كلَّه يلتوي ما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه[1] .

وإذا انتقلنا إلىٰ الصحابة الكرام وجدناهم قد خاضوا محنة

---

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب .

الجوع والعطش بصَبْر وعزيمة ، وتعرَّضوا فيها لأشدِّ أنواعها ، فكان أحدهم يلتوي من شدَّة الجوع ، وربَّما سقط مغشياً عليه من وطأة العطش ، وما أكثر ما قرأنا عن أهل الصُّفَّة وعن معاناتهم في ذلك ، وحسبك أن تعلم أنَّه جاء في سيرتهم ـ رضي الله تعالىٰ عنهم ـ أنَّهم أتت عليهم شدَّة حتىٰ كان السبعة منهم يتعاورون مصَّ تمرة واحدة ، ليُسكِّنوا بذلك ألم جوعهم .

وكذلك سائر سلفنا الصالح لقد امتلأت سيرة حياتهم بوقائع الصَّبْر علىٰ محنة الجوع ، وإليكَ شواهدَ من ذلك تتخذ منها لنفسك سبيل هداية ورُشد في ظلِّ الثبات في مُعتَرَك محنة الجوع والعطش إن ألمَّت بك يوماً، وطالتكَ براثنُها الموجعة :

الإمام عبد القادر الجيلاني يأكل المنبوذات من الجوع :

قال الشيخ عبد القادر :

كنت أقتات بحُرنوبِ الشوك ، وقُمامة البَقْل ، وورقِ الخسِّ من جانب النَّهر والشطِّ ، وبلَغْت الضائقة في غلاءٍ نزلَ ببغداد ، إلى أن بقيتُ أياماً لم آكلْ فيها طعاماً ، بل كنت أتتبَّع المنبوذات أطعمها .

فخرجت يوماً من شدَّة الجوع إلى الشطِّ ، لعلِّي أجِدُ ورق الخَسِّ أو البقل أو غيرَ ذلك فأتقوَّتَ به؟ فما ذهبتُ إلىٰ موضع إلاّ وغيري قد سبقني إليه ، وإن وجدتُ أجِدُ الفقراء يتزاحمون عليه فأتركه حُبّاً ، فرجعت أمشي وسط البلد فما أُدرِكُ منبوذاً إلاّ وقد سُبقتُ إليه ، حتىٰ وصلتُ إلى مسجد ياسين بسوق الرَّياحين ببغداد ، وقد أجهدني الضعف ، وعجزتُ عن التماسك ، فدخلتُ إليه ، وقعدتُ في جانبٍ منه ، وقد كدتُ أُصافح الموت ، إذ دخل شابٌّ أعجميٌّ ، ومعه خبز صافٍ وشُواء ، وجلس يأكل ، فكنت أكادُ كلَّما رفع يده باللُّقمة أفتح فمي من شدة الجوع ، حتى أنكرتُ ذلك على نفسي فقلت : ما هذا؟ وقلت : ما ها هنا إلاّ الله أوْ ما قَضاه من الموت .

إذ التفت إليَّ العجميّ ، فرآني ، فقال : بسم الله يا أخي ، فأبيتُ ، فأقسم عليَّ فبادرَتْ نفسي ، فخالفتُها ، فأقسم أيضاً ، فأجبته ، فأكلتُ متقاصراً ، فأخذ يسألني : ما شُغْلُكَ؟ ومن أين أنت؟ وبمن تُعْرَف؟ فقلتُ : أنا متفقِّه من جيلان ، فقال : وأنا من جيلان ، فهل تعرف شابّاً جيلانياً يُسمىٰ عبد القادر ، يُعرَف بسبط أبي عبد الله الصَّوْمَعيِّ الزاهد؟ فقلت : أنا هو . فاضطربَ وتغيَّر وجهُه وقال : والله لقد

وصلتُ إلىٰ بغداد ومعي بقيّة نفقة لي ، فسألتُ عنك فلم يُرشِدني أحد ، ونفِدت نفقتي ولي ثلاثة أيّام لا أجدُ ثمن قُوتي إلاّ ما كان لك معي ، وقد حلَّت لي الميتة ، وأخذت من وديعتك هذا الخبز والشّواء ، فكُلْ طيِّباً ، فإنّما هو لك وأنا ضيفُك الآن بعد أن كنتَ ضيفي .

فقلت له : وما ذاك؟ فقال : أُمُّك وجَّهَتْ لك معي ثمانية دنانير ، فاشتريتُ منها للاضطرار ، فأنا معتذر إليك ، فسكّنتُه وطيّبتُ نفسَه ، ودفعتُ إليه باقي الطعام وشيئاً من الذهب برسم النفقة ، فقبِلَه ، وانصرف[1] .

إشراف الإمام محمد بن نصر المروزيّ على الموت من شدة العطش :

قال الإمام محمد بن نصر المروزيّ :

خرجتُ من مصر ومعي جارية لي ، فركبتُ البحر أريد مكّة ، فغرِقْتُ ، فذهب مني ألفا جُزء ، وصرتُ إلىٰ جزيرة أنا وجاريتي ، فما رأينا فيها أحداً ، وأخذني العطش ، فلم أقدر

---

(١) صفحات من صبر العلماء : ٦٠ .

علىٰ الماء ، وأُجهِدتُ ، فوضعتُ رأسي على فخذ جاريتي مستسلماً للموت ، فإذا رجلٌ قد جاءني ومعه كوز ، فقال لي : اشرب ، فأخذتُ فشربتُ وسقيتُ الجارية ، ثُمَّ مضى ، فما أدري من أين جاء ولا من أين ذهب[1] .

ابن خِراش يشرب بوله من شدة العطش :

كان عبد الرحمن بن يوسف بن خِراش المروزيُّ حافظَ زمانه وإمام عَصره ، كان واسع الرحلة في طلب العلم يمشي في الفلوات والقفار لتحصيل الحديث وتلقيه من أهله فيناله العطش في طريقه ، فيضطر بسبب شدَّة العطش إلى أن يشرب بوله . ولقد صرَّح بذلك كما نقل عنه بكر بن حمدان المروزيُّ حيث قال : سمعت ابن خِراش يقول : شربتُ بولي في طلب هذا الشأن خمس مرّات[2] .

محدِّث ينقطع عن سماع الحديث بسبب الجوع :

قال الإمام الحافظ ابن أبي حاتم الرازي :

سمعت أبي يقول : بقيت بالبصرة في سنة أربع عشرة

---

(١) صفحات من صبر العلماء : ٦٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٢ .

ومئتين : ثمانية أشهر ، وكان في نفسي أن أُقيم سنة ، فانقطعت نفقتي ، فجعلت أبيع ثياب بدَني شيئاً بعد شيءٍ ، حتى بَقيتُ بلا نفقة ، ومضيتُ أطوفُ مع صديق لي إلىٰ المشيَخة ، وأسمع منهم إلىٰ المساء ، فانصرف رفيقي ، ورجعتُ إلى بيتٍ خالٍ ، فجعلت أشرب الماء من الجوع . ثم أصبحت من الغد ، وغدا عليَّ رفيقي ، فجعلتُ أطوف معه في سماع الحديث على جُوع شديد ، فانصرف عني ، وانصرفتُ جائعاً ، فلما كان من الغد غدا عليّ فقال : مُرَّ بنا إلىٰ المشايخ ، فقلتُ : أنا ضعيف لا يمكنني قال : ما ضعفُك؟ قلت : لا أكتُمكَ أمري ، قد مضى يومان ما طعمتُ فيهما شيئاً ، فقال لي : قد بقي معي دينار ، فأنا أواسيك بنصفه ، ونجعل النصف الآخر في الكِراء ، فخرجنا من البصرة ، وقبضتُ منه النصف دينار[1] .

عالم يغالب الجوع والعطش بالصبر :

قال الإمام إبراهيم بن إسحاق الحربيّ :

أفنيتُ من عُمري ثلاثين سنةً برغيفين إن جاءتني بهما أُمِّي

---

(١) صفحات من صبر العلماء .

أو أُختي أكلتُ ، وإلاّ بقيتُ جائعاً عطشان إلى الليلة الثانية ، وأفنيتُ ثلاثين سنة من عمري برغيف في اليوم والليلة ، إن جاءتني امرأتي أو إحدى بناتي به أكلتُه ، وإلاّ بقيتُ جائعاً عطشان إلىٰ الليلة الأخرىٰ .

وقال أبو القاسم بن الجَبَليّ :

اعتلَّ إبراهيم الحربيُّ علَّةً حتىٰ أشرف على الموت ، فدخلتُ إليه يوماً فقال لي : يا أبا القاسم : أنا في أمرٍ عظيم مع ابنتي ، ثم قال لها : قومي اخرُجي إلى عمِّك ، فخرجت وألقتْ علىٰ وجهها خِمارها ، فقال إبراهيم : هذا عمُّكِ كلِّميه ، فقالت لي : يا عمُّ نحن في أمر عظيم لا في الدنيا ولا في الآخرة الشهرَ والدهرَ ما لنا طعام إلاّ كِسَرٌ يابسة وملح ، وربما عدمنا الملح ، وبالأمس قد وجَّه إليه المعتضد مع بَدْرٍ ألفَ دينار فلم يأخذها ، ووجَّه إليه فلان وفلان ، فلم يأخذ منها شيئاً وهو عليل .

* * *